مقاربة منهجية للتأريخ بإستعمال الفخاريات - المقبرة الغربية لمدينة تيبازة كنموذج -

مصطفى دوربان
جامعة الجزائر 2

مقدمة :

تتضمن هذه الدراسة سرد لنتائج بعض المحاولات التطبيقية المنجزة على بعض الحفريات المنشورة، والتي خصت بعض المقابر ذات المستوى المغلق، إنجاز هذه التطبيقات نرجعه لمحاولة تحديد تاريخ المستويات الأثرية، علما أنه عادة ما تم تحديده بفترات تاريخية لاحقة لتاريخ المعطيات المادية المكتشفة، إلى جانب الاستعانة إلا بالأواني الفخارية المستوردة -الصناعات الشهيرة والعالمية- لتأريخ الطبقية خلال الحفريات والدراسات الفخارية، وتعد هذه الصناعات الوحيدة التي تزخر باهتمام كبير في الدوريات وتقارير الحفريات، بينما باقي الفخاريات فيكون مصيرها في تقديمها على شكل إحصائيات.

الحاجة إلى تأريخ الطبقية ضرورية في كل عمل ميداني، وتهميش الصناعات المحلية في غياب الفخاريات والصناعات الشهيرة، يعيق هذا الجانب الأساسي في الدراسة الميدانية، كونها تفتقر إلى تنميط وتصنيف محكم، ما يجعل إعادة النظر في المجموعات المكتشفة والدراسات السابقة ضرورية، وهذه المحاولة ما هي إلا محاولة ومقاربة من أجل التوصل إلى تأريخ بعض الأواني التي تنتمي إلى الصناعات المحلية، مع الإشارة إلى أن تعميم استعمال هذا المنهج سيؤدي إلى تحديد تصنيفات لها، ومنه الإعتماد عليها في غياب الأنماط الصناعية العالمية، وتبقى حفريات تيبازة الوجهة النموذجية لأجل تحقيق ذلك، لوفرة المقالات و التقارير، كون غيابها يحول دون ذلك.

حفريات المقبرة الغربية لتيبازا:

تم تنقيب المقبرة الغربية لمدينة تيبازا خلال التربص الميداني الذي أنجزه سارج لنسال (Serge Lancel) في شهر جويلية من سنة 1964، نشر تقريره لاحقا[1]، خلال أعمال الحفرية تم الكشف وتنقيب مجموعة من المقابر، حددت خلال الحفرية عدة مستويات أثرية،

مع تعيين أقدم القبور المحفورة في المستويات(Y، Z21، Z)، والأخرى فوقه (Z4، Z14، Z15، Z23، Z24)[2]، إلى جانب المستويات العديدة، أما من حيث المقاربة لمحاولة تأريخ الصناعات المحلية، تم اختيار بعض المستويات دون أي تمييز، والأمثلة المختارة من خصائصها احتوائها على فخاريات تنتمي إلى أنماط صناعية عديدة، والأمثلة على النحو التالي :

- **المثال الأول : القطاع ز(Z)**

هو عبارة عن مجمع جنائزي محفور في الصخر، يحتوي على مجموعتين من الأدوات الأثرية، الأولى تحتوي على الفخاريات، بينما الثانية تنعدم فيها، و نحدد المكتشفات الأثرية على النحو التالي وفقا للتقرير المنشور (لوحة رقم1): جرتين من الفخار الاعتيادي من دون بطانة ولا طلاء(رقم1)، كوب نصف دائري، ذو لون بني فاتح (رقم2)، صحن من الفخار السيجيلي الإيطالي (**دراقندورف 17**) عليه ختم: C.VIRI (رقم3)، صحن من الفخار السيجيلي (**؟دراقندورف** 16) عليه ختم: CALE.F (رقم4)، صحن من الفخار السيجيلي الإيطالي (**دراقندورف** 16) عليه ختم: CERAS /RASIN (رقم5).

أما من حيث الدراسة التنميطية، فنجد أن التصنيف المعتمد في تحديد شكل ونمط الأواني المعتمد جد قديم، من أولى التصنيفات العام للفخار السيجيلي المنجز من طرف دراقندورف[3]، تلتها عدة تصنيفات متممة ومكملة، ما تطلب منا إعادة دراسة تصنيف الفخاريات إستنادا إلى تصنيفات كل من إتلينقر[4] وقودينو[5] وكذلك تصنيفات لاتارا[6].

- **الأشكال 1 و 2 :**

الشكل الأول عبارة عن قارورة فخارية غير محدد تصنيفها، وهي تنتمي إلى الفخار الاعتيادي (céramique commune) نماذج غير مصنفة وغير مؤرخة، بينما الثاني فهو شكل ينتمي إلى النمط الصناعي المعروف بالجداريات الرقيقة، نجده مماثل للشكل:35-33 PAR-FIN (لاتارا.1993).

- **الأشكال 3 و 4 : (إتلينقر 1990، لوحة 1.2.18 و 2.2.18)**

تنتمي إلى الشكل 18 من تصنيف إتلينقر(1990)، عبارة عن أطباق ذو جدار شاقولي ومقعر، ونجد أن التقعر محدد بحزوز ما يجعل الجدار محدد بفصين أو فلقتين، الفص العلوي يمثل الفتحة أو الفوهة، هي الأخرى محددة بحزتين، على الوجه الداخلي للجدار حزوز أخرى تشكل زخرفة، يتصل الجدار شاقوليا مع قعر الطبق المسطح والذي يحمل حزوزا دائرية ومحورية، وعادة ما يحمل المركز علامة الصانع أو الختم، أما الإرتكاز فهو على أرجل كبيرة وشاقولية.

من حيث التصنيف، النمط 2.18 ممثل في خمسة أشكال، ويعد من النماذج النادرة المكتشفة محليا، أما من حيث مقارنة الأنماط، فنجده يعادل الشكل 36 في تصنيف قودينو 1968، و الشكل رقم 225 في تصنيف بلتران 1990، كما نجد أيضا أن هذه التصنيفات تتوافق على تأريخ الشكل بالعشرية الأخيرة للقرن الأول قبل الميلاد، والعشرية الأولى للقرن الأول ميلادي، أي خلال الفترة الأغسطية بالتقريب، بينما تصنيف إتلينقر 1990 يحدد تاريخ النمط 2.18 بنفس المرحلة إلى غاية فترة حكم الإمبراطور تيبيريوس.

- **الشكل 5 : (إتلينقر 1990، لوحة 2.5.12)**

عبارة عن طبق ذو بدن يشكل ربع دائرة ينتهي بحافة شبه منفصلة و منسدلة، مثلثة الشكل في أعلى الحافة، قعر الطبق مسطح، عليه زخرفة على شكل دوائر محورية، في المركز ختم الحرفي، أرجل الطبق مائلة، ذات شكل مثلث، يحدد تاريخ هذا النمط بالفترة الأغسطية، أي خلال الربع الأخير من القرن الأول قبل الميلاد، والعشرية الأولى من القرن الأول ميلادي، بينما في كل من تصنيف قودينو وبلتران يتفقان على تحديد الفترة في العشرية الثانية قبل الميلاد، بين سنتي 15 و10 قبل الميلاد.

من خلال التمثيل البياني المقارن للفترات الزمنية الناتجة من تحديد أنماط الأواني المكتشفة في القطاع «ز»، وتاريخ نشاط الحرفي وفقا لأختام الأواني، نحدد تاريخ المستوى بنهاية القرن الأول قبل الميلاد، أي بين سنتي 20 قبل الميلاد كتاريخ أدنى، والسنة الأولى للميلاد كحد أقصى، وذلك بوجود الشكل رقم 5، الذي حدد وجوده في هذه المرحلة، و حتمية توضع الأواني لاحقا مستبعدة، لاعتبار أن هذه المستويات الأثرية مغلقة، بمعنى أن وجودها كان في فترة زمنية واحدة، وهو التاريخ أو الفترة التي أشرنا إليها.

من خلال المقارنة التالية، والمحاولة في تحديد المرحلة الزمنية، يمكن بالتعدي تأريخ الجرة أو القارورة رقم 1 بهذه المرحلة، و بالتعدي الأشكال المشابهة، إلا في حالة وجود مستويات أخرى تحتوي على نفس الأواني، و بالتالي يمكننا تقديم فترة زمنية شاملة لهذا الشكل.

- **المثال الثاني : القطاع ز14 (Z14)**

وجد هذا المستوى على طبقة طينية حمراء، تتوضع على مستوى 1.20 متر أدنى المستوى «ز»، يشمل عدد من الأواني نحددها في المجموعة التالية (لوحة رقم 2): صحن من الفخار السيجيلي الإيطالي (**دراقندورف 17**) عليه ختم: Q.ARV/SECVN (رقم1)، جرة صغيرة تنتمي للفخار المحلي «الفخار الاعتيادي» (رقم2)، قدح أو كوب ذو مقبضين (رقم3)، جرة كبيرة عبارة عن مرمدة (رقم4).

الدراسة النمطية لأواني القطاع ز14، نحددها على النحو التالي :

- **الشكل 1 : (إتلينقر 1990، لوحة 2.3.20)**

تحت الشكل رقم 20 من تصنيف إتلينقر، تم تحديد إحدى عشر شكلا، تنتمي إلى خمسة مجموعات من 1.20 إلى 5.20، من خلال الدراسة الإحصائية، فخاريات الجزائر لا تمثل إلا خمسة نماذج من الأشكال المصنفة، وفق ما هو محدد أعلاه، حيث تشمل أطباق وصحون ذات جدار عمودي على شكل شريط مقعر قليلا، يحده من الأعلى والأسفل بروز على شكل نتوءات وفص، عادة ما يكون الجدار أملس، أو مزخرف، سواء بحزوز شاقولية، أو زخارف بارزة، والتي عادة ما تمثل مقابض محورة، وينتهي بفوهة مفلطحة عليها حزوز، بينما قعر الطبق مسطح، عادة ما يحتوي على حزوز محورية، وفي مركزها ختم الصانع أو الحريف.

أما بالنسبة للشكل 2.3.20 والذي يعادل النمط «39أ» و«39ب» في تصنيف قودينو، والأشكال رقم 228 و 229 في تصنيف بلتران، تتميز أطباق النمط ببدن شاقولي، محدود في قسميه السفلي والعلوي بنتوءين بارزين، العلوي يحدد الفوهة، والسفلى نقطة الربط بالقعر المسطح، جل النماذج متشابهة، عادة ما تحمل جدران الأطباق على زخارف بارزة، قعر الأطباق مسطح، عليه زخارف دائرية محورية، وفي مركزها ختم الصانع، بينما ارتكاز الأطباق يكون على أرجل عالية مدببة ومثلثة الشكل.

أما بالنسبة لتأريخ الشكل 2.3.20، فقد حدد ببداية القرن الأول ميلادي إلى غاية أواخر حكم «تيبيريوس» حوالي سنة 30م، بينما في كل من دراسة قودينو1968 وبالتران 1990 فقد حددت تاريخه بالعشرية الثانية و الثالثة، أي من نهاية حكم الإمبرطور «أغسطس» وفترة حكم «تيبيريوس».

- **الأشكال 4-2 :**

الأشكال الأخرى تمثل كل من الصناعات المعروفة بالجداريات الرقيقة، فيما يخص الشكل رقم 3 نجده مماثل للشكل PAR-FIN 9A (لاتارا.1993)..، بينما الشكلين 2 و 4 غير متعرف على النمط الصناعي لهما، وندرجهما ضمن الصناعات المعروفة بالفخار الإعتيادي.

إن الفترات الزمنية الناتجة عن تحديد أنماط الأواني المكتشفة في القطاع «ز14»، تسمح لنا بتحديد المرحلة الزمنية لمجموع أواني المستوى «ز14»، ونجدها مماثلة لتاريخ مستوى المثال الأول، حيث نجدها بفعل التمثيل البياني المقارن، بين سنتي 20 قبل الميلاد كتاريخ أدنى، والسنة الأولى للميلاد كحد أقصى، وذلك للحد الأقصى المحدد لتاريخ ورشة

أرفيوس، إن تطابق المرحلتين يؤكد تزامن تاريخ المقابر المكتشفة، الذي نحدده بنهاية القرن الأول قبل الميلاد.

وعليه فإن تاريخ كل من الإبريق رقم 2 والمرمدة رقم 4، هو نفسه، مع الإشارة إلى أن شكل الإبريق نجده في بعض الصناعات خاصة الفخار السيجيلي الإفريقي، لذا لا نكتفي بهذا، بل يتطلب منا تعميم هذا التحليل مستقبلا، مع أخذ بعين الإعتبار خصائص الأواني والعناصر المميزة لهذه الصناعات.

- **المثال الثالث :القطاع ز4(Z4)**

وجد هذا المستوى في حفرة على الصخرة، محمي بتجمع لحجارة صغيرة من الدبش، شمل عدد من الأواني الفخارية المكتشفة، نحددها وفق اللوحة رقم 3 على النحو التالي: إبريق كروي الشكل، ذو عنق كبير، تم العثور على نموذجين منه (رقم1)، قنينة زبدية اللون، ذات عنق طويل، عليه أثر لبطانة (رقم2)، قنينة كبيرة بيضوية الشكل، تنتهي بعنق عليه بطانة بنية اللون (رقم3)، صحن من الفخار السيجيلي الإيطالي (**ريترلينغ1**) عليه ختم: FRUC/RASIN(رقم4)، و قدح أو كوب صغير نصف دائري (رقم5).

الدراسة النمطية لأواني هذا المستوى شملت:

- **الشكل 1** :

يمثل الجرة ذات العنق الطويل و البدن الكروي الشكل، لها مقبض شاقولي يربط أعلى العنق و أعلى البدن، عثر على نموذجين من هذا الشكل، من حيث النمط الصناعى فهي تنتمي إلى ما يعرف بالفخار الإعتيادي أي المحلي.

- **الشكل** 3-2 :

أواني فخارية تمثل مجموعة القنينات، أواني صغيرة الحجم، متميزة عن جل الصناعات الفخارية و المعروفة بأوقنتاريا، تم تحديد نمطهما وفقا لتصنيفات لاتارا (1993)، أشكالها مماثلة للنمط «UNGUENT D1»، و المؤرخة بنهاية القرن الأول قبل الميلاد و بداية القرن الأول ميلادي.

- **الشكل** 4 : (**إتلينقر** 1990، **لوحة** 4.4)

تحدد أواني هذا النمط بصفة عامة ببدن على شكل جدار محدب شاقولي، ومن الأصناف المكتشفة في الجزائر نجد النموذج (1.3.4) وفقا لتصنيف إتلينقر، طبق ذو جدار محدب على شكل ربع دائرة، مائل منفتح نوعا ما (منفرج)، ينتهي بفوهة أو حافة

متواصلة مع البدن ودائرية، هنالك شبه تقعر عند إلتقاء البدن مع قعر الطبق الذي هو مسطح تقريبا مع تقعر مركزه، حز يفصل بينه وبين قعر الطبق المسطح، كما نجد على قعر الطبق زخرفة على شكل حزوز محورية، وفي مركزها ختم الصانع، بينما الإرتكاز فهو على أرجل مثلثة الشكل، أما نموذج تيبازا (4.4)، فله نفس الخصائص تقريبا، جدار محدب قليل الإرتفاع عمودي مع قعر الطبق الذي يتميز بقطر كبير، مسطح ومزخرف بحزوز محورية، في مركزه ختم الصانع، يرتكز على أرجل قصيرة مائلة و مثلثة الشكل.

يحدد تاريخ صناعة الشكل رقم 4 بأصنافه الأربعة وفق النماذج المكتشفة في الجزائر، بين سنة 30 قبل الميلاد إلى غاية نهاية حكم كلوديوس أي سنة 55 ميلادي، وهي فترة جد طويلة، علما أنها تضم صناعة ثلاثة نماذج متباينة وفق تصنيف قودينو رقم 8 و 19 و 30، و تظم هذه المرحلة أيضا الفترات أو المراحل المقترحة لكل صنف على حدا وفق التمثيل التاريخي للأصناف، حيث نلاحظ بعض التوافق بين الفترات الزمنية المقترحة لكل نمط، علما أيضا أن الشكل 4.4 الذي يضم صنفين 1و2، يعادل الشكل 19 عند قودينو، و يعادل الشكلين 207و208 عند بلتران.

- **الشكل 5 :**

مماثل للقدح المكتشف في المستوى «ز» (المثال الأول)، شكل ينتمي إلى النمط الصناعي المعروف بالجداريات الرقيقة، نجده مماثل للشكل «PAR-FIN 33-35» (لاتارا.1993).

من خلال التمثيل البياني المقارن للفترات الزمنية الناتجة من تحديد أنماط الأواني المكتشفة في القطاع ز4، نحدد تاريخ المستوى بنهاية القرن الأول قبل الميلاد و بداية القرن الأول، أي بين سنتي 25 ق.م و 20ميلادي، هذه المرحلة محددة بفعل تاريخ نشاط الحرفي، و هي المرحلة القصوى، علما أن جل الأواني تتوافق في تاريخ الصناعة، ما يجعلنا نرجح وضعها في المقبرة، أو في هذا المستوى متزامنة مع الأمثلة الأخرى، أي بالربع الأخير للقرن الأول قبل الميلاد.

خاتمة :

إن هذا المحور من التحليل يشكل في حد ذاته مجال آخر للبحث في ميدان الفخاريات، علما أن الهدف الأساسي منه هو محاولة تنميط المجموعات المحلية، ومحاولة تحديد فتراتها التاريخية، ما يجعل مجالات البحث مفتوحة للتعريف بالمجموعات المحلية، ومكانتها ضمن الصناعات العالمية، وتعد هذه المقاربة التحليلية لبنة أولى لدراسات مستقبلية الغرض منها تنميط وتصنيف الصناعات المحلية، حتى لا تبقى في شكل جداول إحصاء في الدراسات الميدانية، إلى جانب كونها مؤشر زمني لتأريخ الطبقية خلال الأعمال الميدانية.

الملاحق:

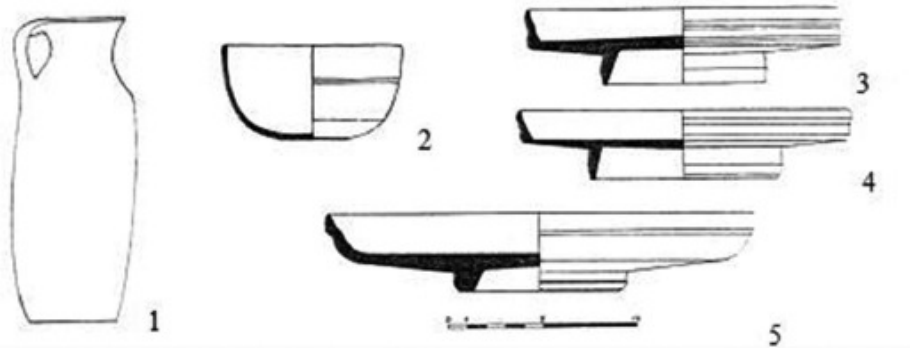

لوحة 1 : أواني القطاع «ز» (حفريات المقبرة الغربية لتيبازا).

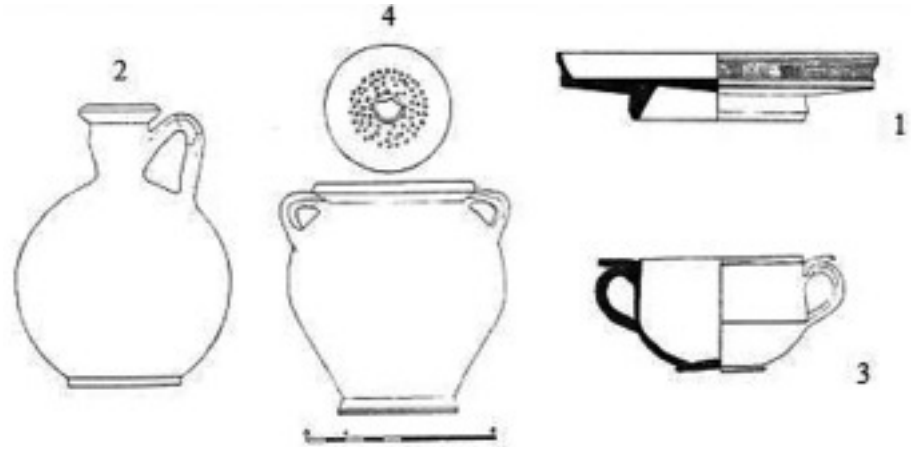

لوحة 1 : أواني القطاع «ز» (حفريات المقبرة الغربية لتيبازا).

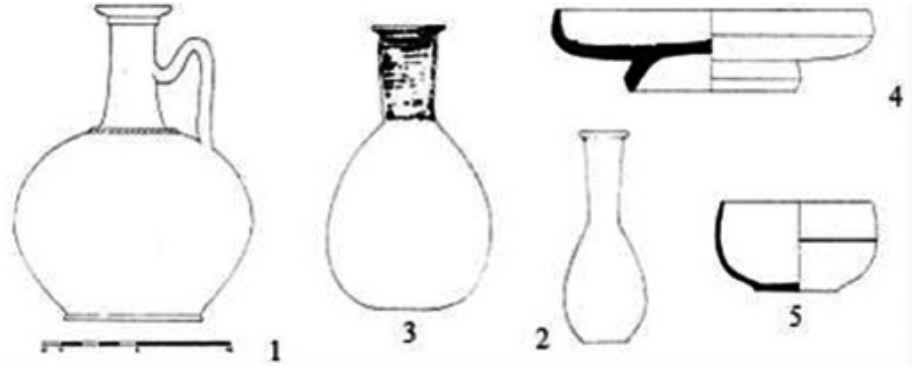

لوحة 1 : أواني القطاع «ز» (حفريات المقبرة الغربية لتيبازا).

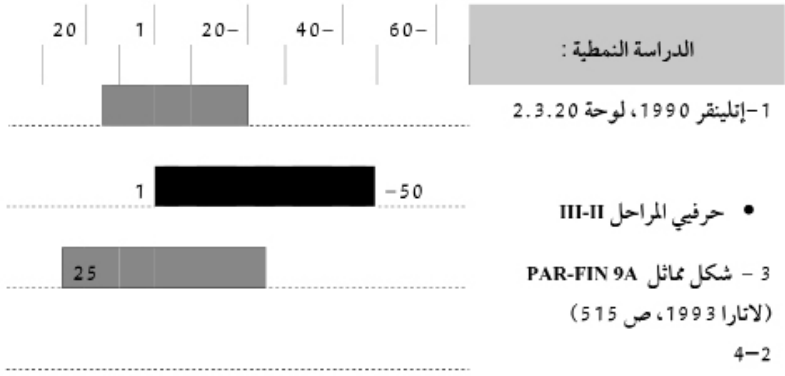

الشكل 1 : تمثيل بياني مقارن لتاريخ أواني القطاع ز (حفريات المقبرة الغربية لتيبازا).

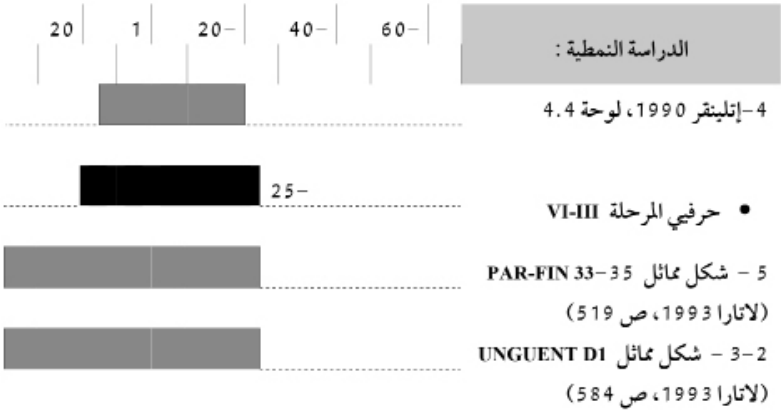

الشكل 2 : تمثيل بياني مقارن لتاريخ أواني القطاع «ز41» (حفريات المقبرة الغربية لتيبازا).

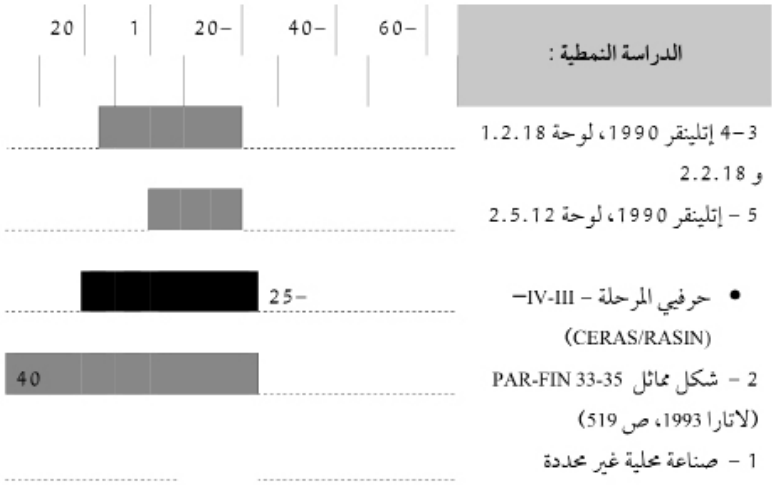

الشكل 3 : : تمثيل بياني مقارن لتاريخ أواني القطاع «ز4» (حفريات المقبرة الغربية لتيبازا).